ولاّدة بنت المستكفي وحفصة الركونية: شبهة اختلاط الأشعار والأخبار

أ.د صلاح جرّار

الملخّص:

تسعى هذه الدراسة إلى بيان أوجه النشابه بين سيرتَيْ ولّادة بنت المستكفي والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونيّة، فقد كانت كلتاهما معشوقة لأحد الوزراء الشعراء فكانت ولّادة معشوقة ابن زيدون وكانت حفصة معشوقة الوزير أبي جعفر ابن سعيد، وكانت كلتاهما شاعرة تشارك الرجال في مجالس الأدب والنقد، وتشابهت أغراض شعرهما وأخبارهما وشخصيتاهما. وقد أدّى ذلك إلى اختلاط بعض أخبارهما وأشعارهما. وترى هذه الدراسة أن شيئاً من الخيال الشعبي قد تدخّل في تداول هذه الأخبار والأشعار. وتحاول هذه الدراسة من خلال استقصاء المصادر الأدبيّة والتاريخية التي ترجمت لهما ومن خلال تقييم هذه المصادر أن تتحقّق من هذه الأخبار ونسبة المقطوعات الشعريّة التي اختلف في نسبتها إليهما. ومن أهم مصادر هذه الدراسة كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، وكتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب، وكتاب عرائس الأدب لابن سعيد وغيرها.

***

مقدّمة:

من الأسماء التي نالت قدراً كبيراً من الشهرة واقترنت بالأندلس اسم الأميرة الشاعرة ولاّدة بنت المستكفي، وقد عاشت ولاّدة في قرطبة في عصر الخلافة الأموية وطوال عصر ملوك الطوائف، ويقال إنّها عاشت نحو مائة سنة، وأنها توفيت سنة 484هـ [1]، وقد اشتهرت بقصة العشق التي ربطت بينها وبين أبي الوليد ابن زيدون (394- 463هـ) [2].

وقد أدّت شهرتها وتداول أخبارها في الأندلس وخارجها إلى نسبة بعض الأشعار والأخبار لها ممّا أضافه اللاحقون نتيجة أوهام الرواة وخيالات الناس، وفي مثل ذلك يقول الجاحظ (ت 255هـ): " ما ترك الناسُ مجهول القائل في ليلى إلاّ نسبوه إلى المجنون، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبنى إلاّ نسبوه إلى قيس بن ذُرَيْح "[3].

ونتيجة لشهرة ولاّدة بنت المستكفي، فقد اختلطت بعض أشعار غيرها من شاعرات المشرق والأندلس بشعرها، كما تشابهت أخبارها مع أخبار غيرها، فقد نسبت لها أبياتٌ للشاعرة حمدة بنت زياد قالتها في الغزل والتشوّق إلى الأحبة، وأبيات للشاعرة أمة العزيز وغيرهما [4]، ومن الشاعرات اللواتي وقع التشابه بين أخبارهنّ وأخبار ولاّدة الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونيّة

---

[1] الصلة لابن بشكوال 696، بغية الملتمس للضبّي 547، المطرب لابن دحية 8، نزهة الجلساء للسيوطي 90، نفح الطيب للمقّري 4/ 207.

[2] الذخيرة لابن بسّام الشنتريني ق1، م1، ص 430، نفح الطيب للمقّري 4/ 205.

[3] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني 2/ 8 ط. دار الكتب المصرية، 1928.

[4] ولاّدة بنت المستكفي، صلاح جرّار، ص 187- 190 .

الغرناطية من شاعرات القرن السادس الهجري في غرناطة، توفيت سنة 586هـ، أي بعد وفاة ولاّدة بنحو مائة سنة [1].

وقد اشتهرت حفصة بقصة العشق التي نشأت بينها وبين الوزير الشاعر أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد (ت 559هـ) وهو عمّ أبي الحسن علي بن سعيد مؤلف كتاب المغرب في حُلى المغرب [2]

***

أوجه التشابه:

وتتشابه سيرتا الشاعرتين ولاّدة بنت المستكفي وحفصة بنت الحاج الركونية في كثير من العناصر ممّا يبعث على الشكّ في بعض أخبار حفصة وأنّها لا تعدو أن تكون استنساخاً لبعض الأحداث التي جرت لولاّدة. ومن هذه العناصر ما يلي:

1. أن الشاعرتين قد وقعت كلّ منهما في غرام وزير شاعر، وأنهما جاهرتا بعشقهما، وأنّهما تغزّلتا في من تحبّ كلّ منهما غزلاً حسّياً، وأنّ كلّا منهما بادرت إلى مكاشفة من تحبّ بحبها وطلبت

[1] المغرب لابن سعيد 2/ 138، الإحاطة 1/ 499، نزهة الجلساء 40، نفح الطيب 4/ 171- 175 .

[2] المغرب 2/ 164، الإحاطة 1/ 214، نفح الطيب 3/513- 517، 179-205.

زيارته، فهذه ولاّدة بنت المستكفي تبادر إلى طلب اللقاء بابن زيدون وتزوره في منزله، بعد أن كتبت له [1]:

ترقّــب إذا جــنّ الــظلامُ زيــارتي فإنّي رأيْـتُ الليـلَ أكْتـَمَ للسـرِّ

وبي منك ما لو كان بالبدرِ ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يَسْرِ

وما كتبته له بعد افتراقهما [2]:

أَلا هل لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في الشّتا أبيتُ على جمرٍ من الشوْقِ مُحْرِقِ

... إلخ

أمّا حفصة فقد خاطبت أبا جعفر بن سعيد تكشف له عن حبّها له وتطلب زيارته قائلة [3]:

أزورك أم تــزور فــإنّ قلبي إلى ما مــلتُمُ أَبَدًا يميلُ

فثـغري موردٌ عــذبٌ زلالٌ وفَرْعُ ذؤابتي ظلٌّ ظليل

وقد أمّلْتُ أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بي المقيل

فعــجّلْ بالجوابِ فما جميلٌ أناتُك عَن بثينةَ يا جميلُ

---

[1] الذخيرة لابن بسّام ق1، م1، ص 430- 432، المطرب لابن دحية 9.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله 745، نزهة الجلساء للسيوطي 92، نفح الطيب للمقّري 4/ 206- 207.

[3] المغرب 2/ 166، نزهة الجلساء للسيوطي 43، نفح الطيب للمقّري 4/ 178.

ويلاحظ أن كلمة (زيارة) ومشتقاتها وردت في أبيات ولاّدة وفي أبيات حفصة، وتكررت في مقطوعات أخرى لهما.

2. أنّ الشاعرتين قد تغزّلت كلّ واحدة منهما بمعشوقها/ عاشقها غزلاً صريحاً، فمما قالته ولاّدة [1]:

أنــا والله أصلــح لــلــمــعــالي وأمشي مشيتي وأتيه تيـها

وأمكن عاشقي من صحن خدّي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وقد استوقفني تصدير ابن بسّام لهذين البيتين حينما قال عن ولادة: "كتبت- زعموا- على أحد عاتقي ثوبها... وكتبت على الآخر "، ففي ذلك إشارة إلى عدم اليقين من قول ولاّدة لهذين البيتين أو كتابتهما على عاتقي ثوبها.

أمّا حفصة فكان غزلها الصريح أكثر جرأة حيث تقول متغزلة بحبيبها أبي جعفر [2]:

ثنائي على تلك الثنايا لأنّني أقولُ على علمٍ وأنطِقُ عن خُبْرِ

وأنْصِفُها لا أكذب الله إنّني رشفْتُ بها ريقاً ألذّ من الخمر

[1] الذخيرة لابن بسّام ق1، م1، ص 429-430، المطرب لابن دحية 8، نزهة الجلساء للسيوطي 87-90.

[2] نزهة الجلساء للسيوطي42، المطرب 10، نفح الطيب 5/ 305،

ويلاحظ أن المصادر التي روت هذين البيتين متأخّرة عن عصر حفصة. مما يضفي بعض الشكّ عليها.

3. أن كلّ واحدة منهما قد كان لعاشقها منافسون آخرون تسبّبوا في إلحاق الأذى الشديد به، فابن زيدون نافسه على حبّ ولاّدة الوزير أبو عامر بن عبدوس (ت 482هـ) [1]، وقد هجاه ابن زيدون بسبب ذلك ولاسيّما في الرسالة الهزلية [2]، كما نافسه على حبّ ولاّدة أبو عبد الله ابن القلّاس البطليوسي[3] وقد حذّره ابن زيدون من التعرض لها في قصيدة مطلعها [4]:

أَصِخْ لمقالتي واسمع وخُذْ فيما ترى أَو دَعْ

وقد كانت منافستهم له على حبّ ولاّدة من أسباب سجنه في قرطبة ثم هربه إلى إشبيلية.

أمّا حفصة فقد تعرّض عاشقها أبو جعفر بن سعيد لمنافسة من أمير غرناطة الموحّدي آنذاك عثمان بن عبد المؤمن، وكان أبو جعفر وزيراً وكاتباً له، وكان الأمير أسود، فهجاه أبو جعفر، وكان ممّا قاله لحفصة: " ما تحبّين في ذلك الأسود وأنا أقدر أن أشتري لك من السوق بعشرين ديناراً خيراً منه " فكان ذلك من أسباب مقتله [5].

---

[1] الذخيرة لابن بسّام ق1، م1، ص 434.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله 663- 686.

[3] تمام المتون لصلاح الدين الصفدي، 12.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله 603-606.

[5] المغرب 2/ 164.

4. ومن أغرب أوجه التشابه بين الشاعرتين، أنّ كلّ واحدة منهما قد اتهمت عشيقها بالميل إلى جارية سوداء وكتبت له أبياتاً تعاتبه على ذلك وردّ عليها بأبياتٍ يدافع بها عن نفسه ويدفع عنه التهمة.

أمّا قصّة اتّهام ولاّدة لابن زيدون بالميل إلى جاريتها السوداء عتبة فقد رواها ابن زيدون نفسه قائلاً: " وكانت عتبةُ قد غنّتْنا ":

أحبّتنا إني بلغتُ مؤمّلي وساعدني دهري وواصلني حِبّي

وجاء يهنّيني البشير بقربه فأعطيتُه نفسي وزدْتُ له قلبي

فسألتُها الإعادة، بغير أمر ولاّدة، فخبا منها برقُ التبسُّم، وبدا عارضُ التجهُّم، وعاتَبَتْ عُتْبةَ، فقلتُ:

وما ضَرَبَتْ عُتبى لذنْبٍ أتت به ولكنّــما ولاّدةٌ تشتـهي ضَـرْبي

فقامَــتْ تَجُرُّ الــذيلَ عــاثرةً به وتمسح طلَّ الدمع بالعَنَمِ الرْطبِ

فبتْنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودمُ المُدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، فلمّا قامت خطباءُ الأطيار، على منابر الأشجار، وأنِفَتْ من الاعتراف، وباكَرَتْ إلى الانصراف، وشت بمسكِ الأنقاس (المداد) على كافور الأطراس [1]:

لو كُنْتَ تنصفُ في الهوى ما بيننا لم تهــوَ جــاريتي ولم تتــخيّرِ

[1] الذخيرة لابن بسّام ق1، م1، ص 430- 432، ديوان ابن زيدون ورسائله 741-744، المطرب 9.

وتركْـتَ غُـصـْناً مثـمراً بجـمـالـه وجنحْتَ للغُصْنِ الذي لم يثمرِ

ولقـد علمْتَ بأنّني بـدرُ السَّـما لكنْ دُهِيتُ لشقوتي بالمشتري

وذكرت المصادر أنّ هذه الحادثة كانت من أسباب القطيعة بين الحبيبين.

أمّا حفصة الركونية فقد اتهمت عشيقها أبا جعفر ابن سعيد بمثل ذلك، فقد ورد في كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب نقلاً عن أبي الحسن عليّ بن سعيد " وبالله ما أبدع ما كَتَبَتْ به إليه وقد بلغها أنّه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور فاعتكف معها أياماً ولياليَ بظاهر غرناطة، في ظلّ ممدود، وطيب هوىً مقصورٍ وممدود:

يا أظرفَ الناس قبل حالٍ أوقـعه نحـوه القَـدَرْ

عشقْتَ سوداء مِـثْلَ ليلٍ بدائعَ الحُسْنِ قد سَتَرْ

لا يظهرُ البشْرُ في دُجاها كلّا ولا يُبْصَرُ الخَفَرْ

بالله قُـلْ لي وأنْـتَ أدرى بكلّ مَنْ هامَ في الصور

من ذا الذي هام في جنانٍ لا نَـوْرَ فيهـا ولا زَهَـر

فكتب إليها بأظرف اعتذار، وألطفِ أنوار [1]:

لا حُكـم إلاّ لأمـر نـاهٍ له مـن ذنبـه مُعْتَذَرْ

لـه محـيّاً بـه حـياتي أعـدّ مـداه بالسُّور

[1] الإحاطة 1/ 492- 493. وقد وقع في أبيات أبي جعفر خلل في الوزن ناجمٌ عن التحقيق.

كصـــحبة العيد في ابتـــهاجٍ وطلعة الشمس والقمر

ســـعـــده لم أمِـــلْ إليـــه إلاّ أطـــرافاً لـــه خـــبر

عدمْتُ صبحي فاسودّ عشقي وانعكس الفكر والنظر

إن لم تلُـحْ يا نعـــيم روحـــي فكيف لا تَفْسُدُ الفِكَر

ومن الواضح في أبيات حفصة تأثرها بأبيات ولاّدة، فسوادُ وجه عتبة، عند ولاّدة، جعله لا يظهر لون الخجل ولا البياض، وبالتالي ظهر كالغصن الذي لم يثمر– كما يرى صاحب المسهب– [1]، وسوادُ وجه جارية أبي جعفر بن سعيد غيّب عنه لون البِشْر ولون الخجل.

وفي حضور " اللون الأسود " في قصة حفصة وأبي جعفر ابن سعيد بعدٌ آخر، فالذي كان ينافس أبا جعفر في حبّ حفصة هو أمير أسود اللون، ويظهر أنّ حفصة لم تكن تتمنّع عليه، فهو أمير غرناطة للموحدين وحفصة كانت تعمل عند الموحّدين، وكانت تعلّم النساء في دار الخليفة المنصور الموحّدي، وسألها يوماً أن تنشد ارتجالاً فقالت [2]:

امْنُنْ عليّ بصكّ يكون للدهر عُدّة

تخطُّ يمـــناك فيه الحـمد لله وحـــده

ويقال إنها أنشدت ذلك للخليفة عبد المؤمن الموحّدي.

---

[1] عقود الجمان للزركشي، ورقة 342.

[2] الإحاطة 1/ 493، المغرب لابن سعيد 2/ 138.

وكانت على تواصل مع أمير غرناطة الموحّدي عثمان بن عبد المؤمن الذي كان ينافس أبا جعفر في حبّها، وكتبت له وقد استأذنت عليه في يوم عيد [1]:

يا ذا العُلا وابنَ الخليفة والإمامِ المرتضى

يهنيك عيدٌ قد جرى منه بما تهوى القضا

وافاك من تهواه في طوْع الإجابة والرّضا

ويتّضح من شعرها هذا أنّها كانت تتقرّب من الأمير عثمان بن عبد المؤمن الذي كان يهواها، وقد أوضح هذه العلاقة بين حفصة وعثمان بن عبد المؤمن لسان الدين بن الخطيب في كتاب الإحاطة، إذ يقول: " ثمّ اتّصلت بالسيّد، وكان له بها علاقة " [2] وهو ممّا يثير غيرة عشيقها أبي جعفر الذي عبّر بدوره عن غيرته بالتواصل مع جارية سوداء.

5. ومما تشترك به الشاعرتان أنّ كلّ واحدة منهما كانت تمضي بعض لياليها مع حبيبها وسط الرياض حتّى الصباح، ويظهر ذلك في شعرها أو شعر حبيبها، فممّا قاله ابن زيدون مخاطباً ولاّدة [3]:

كأننا لم نبتْ وَالوصْلُ ثالثُنا والسَّعدُ قَد غضَّ من أجفانِ واشينا

سرّان في خاطِرِ الظلماء يكتمنا حتّى يكاد لسانُ الصبح يفشينا

---

[1] المغرب لابن سعيد 2/ 139.

[2] الإحاطة 1/ 217.

[3] ديوان ابن زيدون، 172.

ولذلك تخاطبه ولاّدة قائلة [1]:

ترقّب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإنّي رأيتُ الليل أكتم للسرّ

أمّا حفصة وأبو جعفر فقد ذكر أبو الحسن بن سعيد أنّهما باتا بحوْر مؤمَّل في جنّة له هنالك على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب فقال:

رعــى الله ليــلاً لم يُرَعْ بمــذمّــم عـشيّة وارانـا بحــوْر مُؤَمَّـل

وقد نفحتْ من نحو نجدٍ أريجةٌ إذا نفحت هبَّتْ بريّا القرنفل

وغرَّد قُمْريٌّ على الدَّوْح وانثنى قضيبٌ من الريحانِ من فَوْق جَدْولِ

يُرى الروضُ مسروراً بما قد بدا له عـناقٌ وضــمٌّ وارتشــافُ مُقَـبَّلِ

فقالت حفصة [2]:

لعــمركَ ما سُرَّ الرياضُ بوصـلنا ولكـنّه أبدى لنا الغـلَّ والحَسَدْ

ولا صفّــق النهرُ ارتياحــاً لقُرْبنا ولا صَـدَحَ القُمْريُّ إلاّ بما وَجَـدْ

فلا تُحْسنِ الظنّ الذي أنْتَ أهله فما هـو في كلّ المواطـنِ بالرَّشَدْ

فما خِلْتُ هذا الأُفْقَ أبدى نجومه لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رَصَدْ

وإلى جانب هذه الصور من التشابه بين الشاعرتين نجد تشابهاً جليّاً في شخصيّتهما من جمال وجرأة واعتداد بالنفس ومخالطة للرجال من الشعراء والأمراء، حتى قال آنخل غونثالت بلنثيا في

---

[1] الذخيرة لابن بسام ق1، م1، ص 430.

[2] الإحاطة لابن الخطيب 1/ 491- 492، نزهة الجلساء للسيوطي 40.

كتابه " تاريخ الفكر الأندلسي " [1] إنّ حفصة كانت تحتلّ في عصر الموحّدين مكانة ولاّدة في قرطبة بني جهور.

نهاية القصّتين

تتّفق قصّا ولاّدة بنت المستكفي وحفصة الركونية في انتهاء كلّ واحدة منها بافتراق الحبيبين على الرغم من استمرار تعلّق ابن زيدون بولاّدة– كما يظهر من شعره– حتى بعد هجرته إلى إشبيلية واستقراره فيها. وتعلّق حفصة بحبيبها أبي جعفر حتّى بعد مقتله. إلاّ أن القصّتين تختلفان في صورة هذا الافتراق.

فقد انتهت قصّة ولاّدة وابن زيدون بهروب ابن زيدون إلى إشبيلية سنة 441هـ خوفاً من مكائد أعدائه وخصومه وحاسديه ومنافسه في قرطبة، وزواجه من امرأةٍ أخرى وإنجابه منها [2]، في الوقت الذي قويت العلاقة بين ولاّدة وأبي عامر ابن عبدوس حتّى قال فيهما ابن بسّام الشنتريني: " وطال عمرها وعُمر أبي عامر حتّى أربيا على الثمانين وهو لا يدع مواصلتها ولا يغفل مراسلتها " [3] وقال أيضاً: " ونحيّف هذا الدهرُ المستطيلُ حالَ ولاّدة فكان (ابن عبدوس) يحملُ

---

[1] ص 127.

[2] الذخيرة ق1، م1، ص 336– 437، المطرب لابن دحية 164– 168، قلائد العقيان1/ 209– 248.

[3] الذخيرة ق1، م1، ص 432.

كُلَّها ويرفع ظلّها، على جدْب واديه، وجمود روائحه وغواديه، أثراً جميلاً أبقاه، وطلقاً من الظرف جرى استوفاه " [1].

ولئن كانت هذه النهاية للعلاقة بين ابن زيدون وولاّدة، مرتبطة بأحداث تاريخية أوردتها كثير من المصادر القريبة من عصرها، ممّا يجعل قصة هذه النهاية أكثر منطقية وقابلية للتصديق، فإنّ نهاية قصة حفصة بنت الركونية وأبي جعفر بن سعيد تبدو أكثر ارتباطاً بالعمل القصصي والخيال الشعبي وأحاديث السمر، أوّلاً الغرابة تفاصيل هذه النهاية، وثانياً لتشابه هذه النهاية مع نهاية قصص عشقٍ أخرى سابقة مثل قصة ليلى الأخيلية وتوبة بن الحميّر. أما نهاية قصة حفصة وأبي جعفر، فقد أورد لسان الدين بن الخطيب تفاصيلها في كتابه " الإحاطة في أخبار غرناطة " [2] حيث يقول: " قال قريبه وغيره: فسد ما بينه وبين السيّد أبي سعيد (أمير غرناطة الموحدي عثمان بن عبد المؤمن) لأجل حفصة الشاعرة، إذ كانت محلّ هواه، ثمّ اتّصلت بالسيّد، وكان له بها علاقة، فكان كلّ منهما على مثل الرّضْفِ للآخر، ووجد حُسّاده السبيل إلى إغراء السيّد به، فكان ممّا نُمي به عنه، أن قال لحفصة يوماً: وما هذا الغرامُ الشديد به، يعني السيّد، وكان شديد الأُدْمة، وأنا أقْدِرُ أنْ أشتريَ لك من المعرض(سوق العبيد) أسود خيراً منه بعشرين ديناراً فجعل السيّد يتوسّد المهالك، أبو جعفر يتحفّظ كل التحفّظ، وفي حالته تلك يقول:

مَنْ يشـتري منّي الحياةَ وطيبَـها ووزارتي وتـــأدّبي وتـهـــذّبي

---

[1] نفسه ق1، م1، ص 432.

[2] الإحاطة 1/ 217-220. وانظر: المغرب 2/ 164.

بمــحلّ راعٍ في ذُرى ملــمومــةٍ زُوِيَتْ عن الدنيا بأقصى مَرْتّبِ

لا حُــكْــمَ يــأخــذه إلاّ لمــن يعفو ويرؤفُ دائــماً بالمــذنبِ

فلقد سئمْتُ من الحياةِ مع امرئٍ متغــضّبٍ متــغلّب مــترتّــب

المــوتُ يلــحظُني إذا لاحـظْتـهُ ويقــومُ في فــكري أوان تجنّبي

لا أهتدي مــع طول ما حــاولته لرضــاه في الدنيا ولا للمَهْرَبِ

وأخذ في أمره مع أبيه وإخوته، وفتنةُ ابن مردنيش مضطربة، فقال له أخوه محمد وأبوه: إنّ حركنا حركة كنّا سبباً لهلاك هذا.

البيت ما بقيت دولة هؤلاء القوم، والصبر عاقبته حميدة، وقد كنّا ننهاك عن الممارجة، فلم تركب إلاّ هواك. وأخذ مع أخيه عبد الرحمن واتفقا على أن يثورا في القلعة (قلعة بني سعيد) باسم ابن مردنيش، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد، وخاطبوا ابن مردنيش، وصدر لهم جوابه بالمبادرة، ووصلت منه خيلٌ ضاربةٌ، وتهيّأ لدخول القلعة، وتهيّأ الحصولُ في القلعة، وخافوا من ظهور الأمر، فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة، وتمّ لهما المراد، وأخّر الجبْنُ أبا جعفر ففاتاه، وتوقّع الطلب في الطريق إلى القلعة، فصار مختفيّاً إلى مالقة ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنيش، ووضع السيّد عليه العيون في كلّ جهة، فقُبض عليه بمالقة، وطولعَ بأمره، فأمر بقتله صبراً، رحمه الله.

قال أبو الحسين بن سعيد: حدثني الحسين دُوَيْرة قال: "كنتُ بمالقة لمّا قُبضَ على أبي جعفر، وتوصّلْتُ إلى الاجتماع به ريثما استؤذِنَ السيّد في أمره حين حُبسَ، فدمَعَتْ عَيْني لما رأيْتُهُ

مكبولاً. قال: أعليَّ تبكي بعدما بلغْتُ من الدنيا أطايبَ لذّاتها، فأكلْتُ صدورَ الدجاج، وشربْتُ في الزُّجاج، وركبتُ كلَّ هملاج (الدابّة الأصيلة)، ونمتُ في الديباج، وتمتّعْتُ بالسّراري والأزواج، واستعملْتُ من الشمع السرّاجَ الوهّاج، وها أنا في يد الحجّاج، منتظراً محنةَ الحلّاج، قادمٌ على غافر ولا يُحْوِجُ وإلى اعتذارٍ ولا احتجاج. فقلت: ألا أبكي على من ينطقُ بمثل هذا؟ ثمّ تُفُقِّدَ فقمت عنه، فما رأيْتهُ وإلاّ مصلوباً، رحمه الله ".

وأورد لسان الدين بن الخطيب وصفاً لحال حفصة بعد مقتل عشيقها أبي جعفر ووصف هذا الموقف بأنّه " غريبة في أمره مع حفصة " [1] حيث يقول: " قال حاتم بن سعيد، وكان قد أجرى الله على لسانه، إذا حرّكت الكَأسُ بها غَرامَه، أن يقول: والله لا يقتلني أحدٌ سواكَ، وكان يعني الحبّ، والقَدَرُ موكّلٌ بالمنطق، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها. قال: ولمّا بلغَ حفصةَ قتلُه لبسَتْ الحِداد، وجهرت بالحُزْن، فَتُوعِّدتْ بالقتل، فقالت في ذلكَ:

هدّدوني من أجْلِ لِبْسِ الحدادِ ... لحبيبٍ أردَوْهُ لي بالحدادِ

رحمَ اللهُ من يجودُ بدمْعٍ ... أو ينوحُ على قتيل الأعادي

وسقَتْهُ بمثل جُودٍ يديْهِ ... حيثُ أضحى من البلادِ الغوادي

ولم يُنْتَفَعْ بعدُ بها، ثم لحقت به بعد قليل ".

---

[1] الأحاطة 1/ 220

ومع أنّ ابن الخطيب ينسب هذا الخبر إلى حاتم بن سعيد، وهو صديق أبي جعفر وقريبه، إلاّ أنّ تفرّد ابن الخطيب بإيراد هذا الخبر ووصفه له بأنه (غريبةٌ في أمر أبي جعفر مع حفصة) يثير بعض الشكّ حول صحّة الخبر وأنّه مما أضافه اللاحقون من خيالهم بهدف التشويق والإثارة، ويعزّز هذا الظنَّ أيضاً أنّ الطريقة المأساوية التي انتهت بها حياة حفصة، والتي ربّما قصد منها أن تكون في مستوى النهاية المأساوية لأبي جعفر نفسه، وقد وقع مثلها في تاريخ قصص العشق العربي، مثل قصة ليلى الأخيلية (ت 80هـ) وحبيبها توبة بن الحميّر، حيث استدعى الخيالُ الشعبي قصة ليلى وتوبة لإسقاطها على قصة حفصة وأبي جعفر، فقد ذكرت المصادر أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر وأرادت أن تزور قبر توبة، الذي أحبّها ولم يكتب له الزواج منها بسبب رفض والدها، وكان معها زوجها الذي كان يمنعها، ولكنها قالت: " والله لا أبرح حتّى أسلّم على توبة ". فلمّا رأى زوجها إصرارها تركها تفعل ما تشاء، فوقفت أمام القبر وقالت: السلامُ عليك يا توبة! ثم قالت لقومها: ما عرفت له كذبة. فلمّا سألوها عن ذلك قالت: أليس هو القائل:

ولو أنّ ليلى الأخيليّة سلَّمَتْ عــليَّ ودوني تــربــةٌ وصــفائــح

لسلّمتُ تسليم البشاشة أو زقا إليها صدىً من جانب القبر صائح

وأغبــط من ليــلى بمالا أناله ألا كلُّ مــا قرّت به العــينُ صــالحُ

فما باله لم يسلّم عليَّ كما قال؟! وكانت بجانب القبر بومة، فلمّا رأت الهودج فزعت وطارت في وجه الجمل ممّا أدّى إلى اضطرابه، فرمى ليلى فوقعت على رأسها وماتت في الحال ودفنت بجانب قبر توبة [1].

إنّ الربط بين اشتراك أبي جعفر وعثمان بن عبد المؤمن في حبّ حفصة، وبين مقتل أبي جعفر نتيجة لمشاركته في ثورة ابن مردنيش ضدّ الموحدين ربطٌ غير منطقي، لأنّ القارئ لخبر هذه الحادثة قد يتساءل: هل كان أبو جعفر بن سعيد سينجو من الموت بعد مشاركته في الثورة لو لم يكن محبّاً لحفصة ؟! وهل كان لتخلّص عثمان بن عبد المؤمن من أبي جعفر بالقتل أيّ نتيجة في حبّه لحفصة كأن يتزوّجها مثلاً؟!

ولذا فإنّني أرى أنّ قتل أبي جعفر كان في المقام الأوّل بسبب ثورته على أمير غرناطة، وربّما كان حبّه لحفصة عاملاً مساعداً وليس عاملاً أساسيّاً في القتل، وأنّ ما قيل من التزام حفصة بملابس الحداد وعدم استجابتها للتهديد بالقتل بسبب الحداد وقولها شعراً في ذلك، ثم وفاتها حزناً على حبيبها أبي جعفر، وما هي إلاّ ممّا أضافه اللاحقون لقصة هذين الحبيبين رغبة في التشويق والإثارة.

---

[1] الخطيب التبريزي، كتاب شرح ديوان الحماسة للتبريزي 2/ 108، يحيى بن علي (ت502هـ)، تحقيق: غريد الشيح، دار الكتب العلمية، 2000م.

وأرى أيضاً أنّ قصة حفصة وأبي جعفر بن سعيد قد شابها استدعاء قصص العشّاق السابقين في غير موضع منها، وما صور التشابه بين سيرة حفصة وسيرة ولاّدة وكذلك قصة ليلى الأخيلية وقصة حفصة إلاّ من هذا الباب.

كما أدّى هذا التشابه الكبير إلى نسبة أبيات شعرية قالتها حفصة إلى ولاّدة بنت المستكفي؛ فعلى النصب التذكاري واللوحة الرخامية في الحديقة المجاورة لقصور بني أمية في قرطبة (ساحة مارتيليه) وهو النصب الذي يخلّد قصة العاشقين ابن زيدون وولاّدة، نقش بيتا حفصة بنت الحاج الركونية وهما [1]:

أغار عليك من عينيْ رقيبي ومِنْكَ ومن زمانك والمكان

ولو أنّي خبأتُك في عيوني إلى يوم القيــامة ما كفــاني

منسوبين إلى ولاّدة، علماً بأنّ هذا النصب التذكاري يزوره السوّاح يوميّاً.

وفي رأيي أن السبب في هذا الوهم والخطأ في نسبة البيتين يعود إلى التشابه الكبير بين سيرتَيْ ولاّدة وحفصة، وهو ما يدعونا إلى التساؤل عن سرّ هذا التشابه الكبير بين السيرتين، وربّما إلى الشكّ في بعض الأخبار التي اشتركت فيها حفصة مع ولاّدة وإلى إخضاع هذه الأخبار للتقييم

[1] نفح الطيب 4/ 176، معجم الأدباء لياقوت 3/ 1185، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

والتمحيص والتدقيق، ولا سيّما أن ثمّة أشعاراً أخرى لغير حفصة قد نسبت إلى ولاّدة خطأ، منها بيتان لأمة العزيز الحسينية وهما [1]:

ألحاظُكم تجرحُنا في الحشا ولحظُــنا يجرحكـم في الخُــدود

جُرْحٌ بجرحٍ فاحملوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

ومنها أبيات لحمدة بنت زياد الأندلسية وهي:

ولمّا أبى الواشون إلّا فراقنا وما لهمُ عندي وعندك من ثار

وشنّوا على أسماعنا كلّ غارةٍ وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري

غزوتُهم من مقلتيك وأدمعي ومن مهجتي بالسيف والنَّبْلِ والنار

فقد نسبها بدر الدين الصّديق في كتابه نزهة الأبصار والأسماع [2] لولاّدة بينما أوردها السيوطي في نزهة الجلساء [3] لحمدة.

إنّ تكرار وقوع الخطأ في نسبة الأشعار لولاّدة يؤشّر على إمكانية الخلط في نسبة الأخبار بينها وبين حفصة بنت الحاجّ الركونية، ولعلّ هذا التشابه الكبير في أخبار الشاعرتين يعدّ دليلاً أو مؤشّراً على احتمالات هذا الخلط.

---

[1] سرح العيون لابن نباتة 23، المطرب لابن دحية 6.

[2] الورقة 13.

[3] ص 45.

الخاتمة

لئن تنبّه كثيرٌ من النّقاد ومؤرّخي الأدب القدماء والمحدثين لظاهرة الانتحال في الشعر العربي بدءاً من محمد بن سلّام الجمحي (ت 232هـ) في كتابه " طبقات فحول الشعراء "، ومروراً بكثير من النقاد الذين وقفوا عند قضيّة السرقات الشعرية، إلاّ أنّهم لم يتوقفوا طويلاً عند ظاهرة انتحال النصوص النثرية من رسائل وخطب ووصايا وتوقيعات، كما لم يتوقفوا طويلاً عند ظاهرة الاختلاف في نسبة الأبيات والمقطوعات الشعرية، الناجمة عن شهرة الأبيات وكثرة تمثّلها والاستشهاد بها وعن الجهل بقائلها وعن تدخّل الوهم والخيال الشعبي في نسبتها، كما ينطبق ذلك على كثير من الأخبار التي تتعلّق بمشاهير الأعلام والأبطال التاريخية مثل هارون الرشيد والجاحظ وموسى بن نصير وعنترة بن شدّاد، وقصص العشاق مثل مجنون ليلى وكثير عزّة ثم ابن زيدون ومعشوقته ولاّدة، وأبو جعفر بن سعيد ومعشوقته حفصة، فقد تعرضت مثل هذه القصص لتدخلات الخيال الشعبي بالإضافات والزيادات والأوهام وخلط الأخبار. وقد ظهر شيء من ذلك في أخبار كلّ من ولاّدة بنت المستكفي وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية، إذ وقفت الدراسة على قدر غير قليل من التشابه إلى حدّ التطابق في بعض أخبارهما، والاختلاف في نسبة الأشعار إليهما.

إنّ شهرة المشهور هي من أهمّ الأسباب الداعية إلى نسبة الأعمال المجهولة أو الضائعة النسبة إليه، مثلما أنّ عدم شهرة المجهول أو المغمور من أهمّ الدواعي لنسبة أعماله إلى المشاهير.

كما أن كثرة تداول الأشياء المشهورة وتمثّلها والاستشهاد بها على مرّ الأيام قد يؤدّي إلى نسبتها إلى غير أصحابها. ولذلك فإنّ التدقيق في نسبة الأقوال المشهورة إلى أصحابها وفي أقوال المشاهير ومحاولة تجريدها من آثار تدخّل الخيال الشعبي والأوهام نتيجة كثرة التداول الاستشهاد والتمثّل ينبغي أن يحظى باهتمام أكبر من نقاد الأدب العربي ودارسيه.

المصادر والمراجع

1) **الإحاطة في أخبار غرناطة،** لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1973.

2) **الأشعار الأندلسية المتنازع في نسبتها،** د. صلاح جرار، د. رشأ الخطيب، آداب الرافدين، 2021، السنة51، العدد 84، الصفحة 1-53.

3) **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،** الضبيّ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

4) **تاريخ الفكر الأندلسي،** آنخل غونثالث بلنثيا، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1955.

5) **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون،** الصفدي، خليل بن أيبك (ت 764هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، 1969.

6) **ديوان ابن زيدون ورسائله،** شرح وتحقيق الأستاذ علي عبد العظيم، تقديم ومراجعة الدكتور محمد إحسان النصّ، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين، الكويت، 2004.

7) **ديوان شواعر الأندلس،** جمع وتحقيق الدكتورة واقدة يوسف كريم، دار ومكتبة سامراء للنشر والتوزيع، 2020.

8) **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،** ابن بسّام الشنتريني (ت542هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، 1978- 1979.

9) **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، جمال الدين بن نباتة المصري (686-768هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964.

10) (**كتاب**) **الصلة**، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966.

11) **عقود الجمان للزركشي**، مخطوط رقم 4434 في مكتبة السليمانية بإستنبول.

12) **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، الفتح بن خاقان، تحقيق الدكتور حسين خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1989.

13) **المطرب من أشعار أهل المغرب**، ابن دحية الكلبي (ت 633هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، 1954.

14) **المُغْرِب في حُلى المَغْرب**، ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت 685هـ)، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1964.

15) **نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع**، بدر الدين الصّديق (ت بعد 1062هـ)، مخطوط في جامعة الملك سعود.

16) **نزهة الجلساء في أشعار النساء**، للإمام جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، 1986.

17) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، المقّري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1968.

18) **ولاّدة بنت المستكفي**، د. صلاح جرّار، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2011.